الـنـمـاذج الـبـشـريـة

قد يقوم الكاتب بتصوير نموذج لإنسان تتمثل فيه مجموعة من الفضائل أو الرذائل أو من العواطف المختلفة التي كانت من قبل في عالم التجريد ،أو متفرقة في مختلف الأشخاص وينفث الكاتب في نموذجه من فتنة ما يخلق منه في الأدب مثالاً ينبض بالحياة ، أغنى في نواحيه النفسية وأجمل في التصوير ،وأوضح في معالمه مما نرى في الطبيعة وهذا هو ما نقصده من معنى النماذج البشرية في الأدب وطبيعي أن الأدب المقارن لا يحفل بدراسة هذه النماذج البشرية إلا إذا صارت عالمية ،فانتقلت من أدب إلى أدب ،وقد تحتفظ في انتقالها ببعض خصائص كانت لها في الأدب الذي نشأ فيه ،وتكتسب مع ذلك خصائص أخرى تبعد بها قليلاً أو كثيراً عن منشئها الأول وقد تكون هذه النماذج إنسانية عامة ،أو مأخوذة عن مصدر أسطورى أودينى أو عن تقاليد وطنية، وأخيراً قد تكون هي شخصيات تا ريخية دخلت ميدان الأدب ،ونوجز هنا القول في أنواع هذه النماذج مع ضرب أمثلة عامة لها تساعد على توجيه البحوث في دراستها دراسة مقارنة.

1 ـ النماذج الإنسانية العامة: وفيها يتعرض الباحث للكشف عن الوسائل الفنية التي صور بها الكتاب في آداب مختلفة نموذجاً إنسانياً عاماً في المسرحيات أو القصص أو الشعر الغنائى ،ومثل هذه النماذج لا تعد في الأدب المقارن إلا إذا انتقلت تاريخياً من أدب إلى أدب ،كما هو واضح من منهج الأدب المقارن .

ومن هذه النماذج الإنسانية العامة نموذج "البخيل" ،ويبدو أن الشاعر "ميناندر" اليوناني كانت له مسرحية في ذلك النموذج لم تصل إلينا ،حاكاها الشاعر الروماني "بلوتوس"في مسرحيته التي عنوانها :"أولولاريا "أو"وعاءالذهب ".وبها تأثر موليير في مسرحيته الشهيرة:البخيل ،وفيها صور موليير شخصية "أرباجون" نموذجاً إنسانياً للبخل ،وتعمق في تصويره أكثر مما فعل بلوتوس، بحيث ظهرت هذه الرذيلة الاجتماعية في صورها المختلفة الهدامة في علاقة البخيل بأولاده وفي نظرته إلى المجتمع حتى أن عاطفة الحب عنده لم تطغ على صفة البخل فيه، وقد ظهرت في المسرحية آثار هذا البخل الأليمة في أبناء ذلك البخيل ، مما أكسب هذه الملهاة طابعاً به يقرب الضحك المر من البكاء ، وتبدو من خلالها المأساة الاجتماعية في صورة ملهاة عميقة المعانى ،وتوالت بعد ذلك المسرحيات في الآداب الأوروبية تصورنموذج البخيل ،وأشهرها مسرحية الشاعر الإيطالى : كارلرجولدونى(1707-1793) وعنوانها البخيل ،ملهاة في فصل واحد ، وفيها يرفض البخيل "أمبروجيو" تزويج ابنة زوجته ممن تحب بخلا بجهازها فيقبل الفتى زواجها دون مال ،على شرط أن يوصى "أمبروجيو"لها بكل ما يملك ، وللمؤلف ملهاة أخرى عنوانها :"البخيل المتبرج"،وفيها يصور نموذج البخيل الذي يظهر بمظهر المسرف ليفوز بزيجة غنية ،فيبوء بالفشل ، ولنفس المؤلف ملهاة ثالثة بعنوان :البخيل الغيور ،وفيها يسبب البخيل آلاماً جسمية لامرأته الفاضلة التي يحبها ، ويكتشف أن حب المال سبب بؤسه ، ولكنه لا يستطيع أن يقلع عن آفته تلك التي يشقى بها .

2ـ نماذج بشرية مأخوذة من الأساطير القديمة : ويختار الكاتب منها ما يتسع للتأويل الخصب ، وما يتحول معناه إلى رمز فلسفى أو اجتماعى وتتنوع هذه المعاني عادة على حسب العصور المختلفة وماتتطلبه من كتابها من آراء ومثل ، وذلك مثل شخصية "أودبيوس" في مسرحيات أسخيلوس وسوفوكليس ويوريبيدس اليونانيين ،ثم في مسرحية سينيكا الصغير (4 ق.م -65م)وهو يعتمد على سوفوكليس وقد كثرت المسرحيات في شخصية أوديبوس في مختلف الآداب على توالى العصور، وقد سبق أن أشرنا إلى أشهر هذه المسرحيات وإلى معانيها المختلفة ، ثم أثرها في الأدب العربي .

ومن الشخصيات كذلك نموذج : بيجماليون،فنان من قبرص هام بجمال تمثال من صنعه ،فرجا أفرو ديت أن يتزوج من امرأة تشبة التمثال ،ففعلت أكثر من ذلك، إذ وهبت التمثال نفسه الحياة عقاباً له على إعراضه عن الزواج ،ويرمز بذلك إلى هيام الفنان بخلقه الفنى ،وأول من تحدث عنه في الأدب هو أوفيد الرومانى (42ق.م -107م)في قصصه في المسخ .ثم تناولها شعراء وكتاب من مختلف الآداب وخاصة من الإنجليز ، منذ الشاعر الإنجليزي :"جون مارستون"في قصيدته :"نفخ الروح في صورة بيجماليون".ثم في ملهاة وليم شوبنك جليبر التي عنوانها :"بيجماليون "،وقد نشرت لأول مرة في لندن عام 1912،وبطله الذي يمثل بيجماليون فيها هو هينجز المتخصص في دراسة الأصوات ، يعجب بلهجة (إليز) بائعة الزهر ،لأنها في لهجتها غير المدنية تتيح له مثالاً فريداً في دراسة الأصوات ، فيلقنها دروساً تظهر فيها ذكية بارعة ، وتظهر في المجتمعات الراقية بوصفها "دوقة" ،إذ أن تعليم الأصوات يتطلب تعليم النحو ،وتعليم النحو على طريقة سليمة يستلزم تهذيب الفكر والإحساس ،وبهذا التعليم تغيرت طبيعة الفتاة ،ولكن هذا التغيير كان شؤما عليها ،إذ ولد في نفسها صراعاً بين إحساسها بالفرق بين الطبقة التي نمت منها والطبقة التي

تحيا فيها ، وأشد ما يؤلمها أنها لمن تكن بالنسبة لأستاذها سوى موضوع للدراسة ، وتعطف عليها والدة "هيجنز" ،وتلوم ابنها على قلة اعتداده بالفتاة . وينتهى الصراع النفسي أن ترفض الفتاة البقاء في تلك الطبقة ، وتفضل الزواج بسائق سيارة أجرة ،وتأبى الزواج من أستاذها الذي خلقها واعتز بها حتى بعد أن أراد الاحتفاظ بها زوجة ، وفي هذا هجاء اجتماعي باحتقار الفتاة للطبقة الأستقراطية وما بها من تقاليد تافهة .

وقد تأثر الأستاذ توفيق الحكيم بالأسطورة اليونانية ، وأول مالفت نظره إليها ـ كما يحكى هو ـ لوحة شاهدها في متحف اللوفر بباريس ثم أعاد تذكيره بها "فيلم "عرض في القاهرة عن "بيجماليون "على حسب مسرحية "برنادشو" السابقة الذكر ، ولكن أصالة الأستاذ توفيق الحكيم تتجلى إلى جانب تأثره . ففي مسرحيته: "بيجماليون" ، يجعل الصراع يدور بين المثال الفنى في نظر الفنان المعتد بخلقه وبين واقع الحياة ، ثم ينتصر الأستاذ توفيق للفن ضد واقع الحياة الذي ينفر منه الفنان المخلص . ذلك أن "جالاتيا" ـ وهى رمز للخلق الفنى الذي يهيم به خالقه أولا ـ لاتلبث بعد أن ينفث فيها الإله الروح أن تصبح رمزاً للمرأة في غرائزها الحيوية التي تدفعها إلى تفضيل الرجل الفنان المشتغل عنها بفنه فتهرب مع "نارسيس" المدلل المعجب بنفسه ، ثم تثوب إلى رشدها وتفئ إلى زوجها الفنان "بيجماليون" تستغفره عما فعلت وتقر بعظمته،وتقوم على خدمته كما تفعل الزوجات ، ولكن "بيجماليون" الفنان ينفر منها حين يراها تزاول أعمال البيت ، وتحمل المكنسة فتبعد بعملها عن صورتها المثالية التي سمت بها في ذهنه حين كانت تمثل الجمال الخالص ، ويثور الفنان على رؤية المرأة في صورتها الواقعية فيدعو الإله أن يردها تمثالاً عاجياً كما كانت ،ثم ينهال على رأسها بالمكنسة .. وأكبرالظن أن بيجماليون لم يحطم تمثاله لخيبة أمله المزعومة في المرأة فحسب ، بل انتقاماً كذلك من التمثال الذي حرك بجماله غرائز الحياة في نفسه . وفي هذه المسرحية كانت شخصية "بيجماليون " تعبيراًعن شخصية الأستاذ توفيق الحكيم في معارضته الفن بالحياة ، ثم انتصاره للفن . وفي نفور الفنان من المرأة . لأنها ملهاة عن فنه . وتلك آراء الحكيم في المرحلة الأولى من حياته ، قبل أن يتطور نحو واقع الحياة الحق ، ويصبح رب أسرة في واقعه هو .

3ـ نماذج مصدرها دينى :

وهي المأخوذة من الكتب المقدسة وغالباً ما يبعد بها الكاتب أو الشعراء قليلاً أو كثيراً من مصادرها.. وطبيعي أنا لا نحفل هنا إلا بالشخصيات العالمية ،أى التي انتقلت من أدب أمه إلى أدب أمة أخرى ،كي تجد طريقها إلى الدراسات المقارنة .

ومنها شخصية "يوسف" وشخصية "زليخا" في الأدب الفارسي ،كما أخذتا عن القرآن ثم عن التوراة وشروحها . وقد صورهاتين الشخصيتين في الأدب الفارسي شاعران ،هما الفردوسى . المتوفى حوالى عام 1021م. ثم بلغ بالشخصيتين قمتهما الفنية في التصوير الأدبي ، الشاعر الفارسي الآخر عبد الرحمن الجامى ، المتوفى 1492م وقد بعدت هاتان الشخصيتان قليلاعما نعرفه من القرآن ، بل وضحت صبغتها الصوفية في قصة جامى . فيوسف في هذه القصة يعتقد ـ كما يعتقد الصوفية ـ أن التأمل في الجمال الإنساني يقود إلى الله ذى الجمال المطلق ، فهو ينصح الأميرة المصرية بازغة ، حين أتت إليه مدلهة بحبه ، قائلا. الجمال في الخلق انعكاس عابر لا يطول بقاؤه ، كنضارة الورد فإذا أردت الخلود فتوجهى إلى أصل الأشياء ".وقد ترهبت الفتاة على الأثر . وزهدت في خير الدنيا وزليخا ترى في حلمها ـ وهي فتاة صغيرة ـ"يوسف". قبل أن تعرفه ويبدو لها في حلمها أنه سيكون زوجها المقبل ، ثم تعرفه بعد ذلك وهو أمين مخازن زوجها . وكانت مقيمة على حبها لفتى حلمها . إنها تظل عذراء مع زوجها طوال حياته ، وهذا قريب من الزواج الصوفى الذي عزاه الصوفية كذلك إلى شخصية ليلى في الأدب الفارسي والتركي وتظل العاطفة قوية لدى زليخا . كما تظل ليوسف نظراته الصوفية، حتى يسلم بتوله زليخا في حبه ، وأنها ـ وقد هرمت وعميت ـ تقيم في كوخ من اليراع تستمع إلى وقع سنابك حصان يوسف على الطريق ، فيدعو الله أن يردشبابها وبصرها ،ويستجيب الله له ،ثم لا يلبث بعد زواجه أن يمل نعيم هذه الدنيا ،فيسأل الله أن يجعل برحيله إلى دار النعيم فتموت زليخا حزنا عقب وفاته.

ومثل آخر لهذه الشخصيات يتمثل في "قابيل" أول قاتل على وجه الأرض ،ومثال الساخط المتمرد ، الضائق الذرع بما لا يعرف له كنهاً من مسائل الخير والشر ووجود الخلق. وهو كذلك في أدب الرومانتيكيين، كما في مسرحية بيرون التي عنوانها "قابيل" . وقد تأثر به الشاعر الفرنسي البرناسى :"لو كنت دى ليل" ثم الشاعر الرمزى بودلير.وقد عبروا به عن مظاهر حيرة الإنسان وثورته على ما يراه ظلماً . وتمرده الميتافيزيقى . وضلاله في سبل لا يهتدى فيها تفكيره ،في حين هو مسوق إلى السير فيها . ثم عن بئسه حين يتخذعقله وحده رائداً له.

4ـ نماذج مصدرها أساطير شعبية:

والأدب المقارن لا يعالجها إلا إذا أصبحت عالمية ، فتناولها كبار الكتاب في مختلف الآداب ، وإلا فإن الأدب المقارن يتخلى عنها للباحثين في الأدب الشعبى والتقاليد الشعبية ، فشخصية "جحا "لم ترق عندنا إلى مرتبة أدبية عالمية . في حين صارت كذلك شخصية شهرزاد . وهذه الشخصية الأخيرة مصدرها الأول قصص ألف ليلة وليلة الفارسية الأصل .بعدأن اصطبغت بالصبغة المصرية ، وقد انتقلت شهرزاد إلى الآداب الأوروبية صورة لمن يهتدى إلى الحقيقة ويهدى إليها عن طريق القلب والعاطفة .

وكانت القصص التى حكتها شهرزاد ـ عند الأوروبيين ـ ترمز كذلك إلى هذه القضية الكبرى الرومانتيكية في نصرة القلب والعاطفة على التفكير المجرد ، فمثلا قصة: علاء الدين والمصباح السحري كان فيها نور الدين مثال المفكرالذي لا يصل إلى الحقيقة لأنه يريد الاهتداء إليها بعقله ،في حين يهتدى إليها علاء الدين بسذاجته وطهره ورقة عاطفته ، وصار المصباح السحرى رمزاً للعبقرية التي يصل بها المرء إلى كنوز المعرفة والسعادة عن طريق القلب والهداية العاطفية والإلهام . وأثر ذلك الإدراك الرومانتيكى لهذه الشخصية واضح في مسرحية "شهرزاد" للأستاذ توفيق الحكيم ، وفي قصة " القصرالمسحور" للأستاذين الدكتور طه حسين والأستاذ توفيق الحكيم معاً ، وقصة "أحلام شهر زاد" للأستاذ الدكتور طه حسين ، وفي هذا كله تقرب شخصية شهر زاد الرومانتيكية من شخصية مرجريت وهيلين في مسرحيتى جوته اللتين عنوانهما فاوست ، كما تقرب شخصية شهريار في مسرحية الأستاذ توفيق الحكيم من شخصية فاوست في مسرحيتى جوته السابقتين اللتين عنوانها "فاوست" .

والأصل في شخصية "فاوست" أسطورة شعبية ألمانية ،موجزها أن عالماً كيمائياً يسمى "فاوست" ولد في أواخر القرن الخامس عشر، وكان سكيراً كسولاً حياته غامضة عجيبة ، وعلى الرغم من وجوده تاريخياً ، فقد حاكت الأساطير الشعبية حوله كثيراًمن الأقاصيص ، فزعمت أنه كانت له صلة قرابة بالشياطين ، وأنه كان ساحراً، وله قدرة على مخاطبة الموتى ،وقد وقع بدمه عقداً مع الشيطان ،عاهده فيه أن يطيعه ، على أن يرجع له الشيطان شبابه ، وقد كانت حياته الغامضة العجيبة ، وموته المبكر (عام1539،أو عام1543) من العوامل في ميلاد هذه الأساطير ، وتحكى بعض هذه الأساطير أن "فاوست" مات طريداً من رحمة الله عقاباً له (وهى الأسطورة التي أخذ بها الشاعر الإنجليزى "مارلو" ،المعاصرلشكسبيرفي مأساته التي صدرت عام1604، وفيها يبث في الأسطورة معاني إنسانية عميقة) ـ في حين تحكى أساطير أخرى أنه إنما باع نفسه للشيطان ليرضى نفسه في معرفة الحقائق ، وأنه عصى الشيطان بعد ذلك فغفر له ، واهتدى إلى الحقيقة . وهذه هي فكرة جوته في مسرحيتيه السابقتين ، وصارت الشخصية عالمية بفضل جوته ، وأصبحت قالباً لتصويرالأفكار الفلسفية والمعانى الإنسانية في الأدب . ومن مشاهير من عالجوا الموضوع بعد ذلك بول فاليرى ،ثم توماس مان .

هذا، ولأسطورة "فاوست" نظير في أسطورة شرقية بطلها يسمى "تيوفيل" الذي وقع عقداً مع الشيطان ليعيده إلى رتبة كنسية كان قد فصل منها ،ولكنه لا يلبث أن يندم ،ويصلى أربعين يوماًوليلة ،فتقبل توبته ،ويعترف بذنبه أمام الناس ، ويموت على الأثر ،وهذه الأسطورة رويت عن رجال كنيسة في آسيا الصغرى ، ونظم فيها كثيرمن شعراء العصور الوسطى . من أشهرهم الشاعر الفرنسي "روتبوف" ،توفي في القرن الثالث عشر الميلادي ،ولكن هذه الأسطورة الأخيرة لم ترتق إلى المكانة العالمية في الأدب .

وهكذا تطور الموضوع تبعاً لاتجاهات الكتاب الذين عالجوه وتبعاً لفلسفتهم في الحياة ،وميولهم الخلقية ، والنزعات السائدة في عصرهم ،ويسهل تأويل هذه الشخصيات المأخوذة من أساطير شعبية ،فتبعد كثيراًعن معانيها الأصيلة كما وردت في تقاليد الأمم التي نشأت فيها ،وكما أرادها أوائل من عالجوها في أعمالهم الأدبية وذلك أن الحقائق التاريخية فيها ضئيلة إذا قيست بالشخصيات التاريخية.

5ـ الشخصيات التاريخية :

وذلك حين تدخل نطاق الأدب على يد عباقرته ،فتصبح قوالب أفكارعامة اجتماعية وفلسفية ،وتكتسب طابعاً أسطورياً فتتسع للتعبيرعن فلسفات مختلفة ، وتكون منفذ لتيارات عالمية فنية وفكرية .

ونشير هنا إلى شخصية ليلى وشخصية المجنون في الأدبين العربي والفارسي .

ومن الشخصيات التاريخية التي لقيت حظاً فريداً في الأدب ، شخصية كيلوباترا ، فقد اهتم بها الكتاب والشعراء منذ العصور القديمة وجعلوا منها مادة خصبة لأفكارهم وخيالهم ، وذلك أنها عاشت في فترة تاريخية خطيرة ،وكان صراعها مع أكتافيوس متعاونة مع أنطونيوس ممثلا لصراع حاسم ،فكلا الفريقين لو انتصر لساد العالم. فكان هذا في

الواقع صراعاً بين الشرق والغرب ،ولعبت كيلوباترا دوراً كبيراًفي هذا الصراع بجمالها الذي أوقع في حبها القائد الرومانى ،والحب عاطفة فردية هينة في أصلها ، ولكنها تمخضت في شخصية كيلوباترا عن نتائج خطيرة وطنية وعالمية .ويعبر باسكال الفرنسى عن هذا المعنى بقوله : "لو كان أنف كيلوباترا أصغرمما كان لتغيروجه الأرض كله .وفي ذلك كله تهيأت تلك الشخصية ـ بمعانيها العاطفية ،ونتائج أعمالها التاريخية ـ للدخول في الأدب . فكانت كيلوباترا ممثله للقوة وسحر الإغراء . والخدعة ،والإغراق في الملذات، والكبرياء وحب السيطرة ،والاعتداد بالنفس ،وبراعة الحيلة ،وأول مسرحية فرنسية في عصر النهضة كان موضوعها "كيلوباترا "ألفها الشاعر جودل (1532-1573) وعنوانها "كيلوباترا"الأسيرة ، وبعده ألف صموئيل دانيل الإنجليزى مسرحيته "كيلوباترا"(1594) وقد صارت الشخصية عالمية في الأدب بعد أن تناولها شكسبير في مسرحيته أنطوان وكيلوباترا . ومن أشهر من تناولوا هذه الشخصية في الأدب الإنجليزي ـ بعد ذلك ـ جون دريدن،في مأساته كل شئ في سبيل الحب أو العالم المفقود ثم برناردشو(1856-1950)في ملهاته "القيصر وكيلوباترا"، مثلت عام 1912،وفيها يصور حب كيلوباترا في صغرها ليوليوس قيصر وهو الحب الذي انتصرت به على أخيها ، بمناصرة يوليوس قيصر لها فاستولت على عرش مصر.

ومن أشهر المسرحيات الفرنسية ـ في الموضوع كذلك ـ مسرحية لاشابل وعنوانها"موت كيلوباترا"(1608)ثم مسرحية "كيلوباترا التي ألفها "مار مونتل" عام1750، ومسرحية أخرى بنفس العنوان للإسكندرسومية ،ثم مسرحية : "كيلوباترا" للسيدة جيرادون(1847).

وأكثرمن صوروا هذه الشخصية في تلك الآداب كانوا يرون في "كيلوباترا" صورة للعقلية الشرقية في نظرهم ، وفي ميلها إلى لذة العيش ومتاعه ،والانتصار بالخديعة لا بالجهد، وسلوك سبيل المكر والحيلة ،وطالما هاجموا الشرق فيها ، وهاجموا مصرفي القديم .

وقد أراد "شوقى" أن يرد عليهم بالدفاع عن "كيلوباترا " في مسرحيته "مصرع كيلوباترا" لا بوصفها ملكة ، بل بوصفها مصرية شرقية ،فقد قدمها في صورة المخلصة لوطنها وتؤثره على حبيبها وتحيا وتموت لمجد مصر ،وتأبى أن تسأم الذل . ولسنا بصدد شرح ذلك في مسرحية شوقى ، ولا بسبيل بيان إلى أى حد نجح في تصويره شخصيتها فنياً، ولكننا نقرر أنه أسهم بعمله في موضوع عولج قبله ، وأراد أن يقاوم آراء كتاب الغرب فيه .